تعددت أشكالها وآلياتها والقراءة واحدة

الفرنسي مارك روجيه.. «حكواتي» عصري يتجول على حمار

عرف الإنسانٍ على مر التواريخ والعصور أنماطاً شتى من أساليب ووسائط تعميم المعرفة وإشاعتها بين الناس، وتوصيل الكتاب إلى البقاع النائية أو البعيدة عن المدنية، ولعل أول وسائل هذا الاتصال القرائي هي «البغال والحمير» التي كانت تنقل الكتب من مكان إلى آخر في الدولة الواحدة، أو بين الدول المختلفة، ثم الجمال والعربات والسيارات والسفن والطائرات التي حملت الكتاب إلى آفاق الأرض، وفي كل ذلك ظل الكتاب هو الوعاء المعرفي وظلت القراءة الفردية هي الفعل الذي يجري عبره تحصيل المعرفة.

مارك روجيه يقرأ للأطفال

الطيب بشير

لم يمس التطور شكل القراءة فقط بل مارس سطوته على أوعيتها أيضاً، فسرعان ما خطر في بال الإنسان أن يقرأ للآخرين، وهكذا تحولت القراءة من فعل فردي خاص وحميم إلى فعل جماعي يجتمع فيه القرّاء في طقس إبداعي ثقافي شهدت نماذجه المختلفة حضارات إنسانية متعددة؛ واشتهرت، مثلاً، المقاهي التي طالما شهدت «الحكواتية»، والمنتديات والمنابر الشعرية والأدبية، والمجالس الثقافية العامة والخاصة ثم برامج الكمبيوتر التي تقرأ لك كل ما لذّ وطاب.

قراءة النجوم

القارئ أيضاً لم يظل هو نفسه في هذه الحالات كلها، بل سرعان ما فكر المعنيون بالشأن الثقافي في «استثمار» شهرة نجوم الفن والمسرح والسينما وغيرها ليجذبوا الناس إلى القراءة والكتاب، وهكذا صار القارئ نجماً سينمائياً أو ممثلاً مسرحياً مشهوراً أو مذيعاً ذائع الصيت، وجرى تكليفهم بقراءة رواية أو قصائد شعريّة أمام الجمهور كأسلوب لتشجيع النّاس على القراءة والاستمتاع بروائع الأدب. في هكذا تجربة يظهر الممثل على المسرح من دون أيّ ديكور يذكر، بحضور جمهور غفير، ولأنّ التجربة نجحت فقد سارع الناشرون الأذكياء بتحويلها إلى إسطوانات «سي دي» في سلسلة «الكتاب المسموع»، وتمّ إبرام عقود مجزية بين دور نشر كبيرة وشهيرة كدار «فلاماريون» ذائعة الصّيت في فرنسا والبلدان الفرانكفونية وبين ممثّلين نجوم لتسجيل نصوص روائيّة، أو قصائد شعريّة بأصواتهم. بالطبع، يتمّ انتقاء الصّوت الملائم لنوعيّة النصّ، فلا يمكن، على سبيل المثال، اختيار صوت نانسي عجرم لتسجيل نصوص لابن المقفّع أو التّوحيدي، ولكن من الممكن تخيّل صوتها يهمس بقصائد لنزار قبّاني الغزليّة. نجحت التجربة، وليس أمراً نادراً أن ترى امرأة فرنسيّة، وهي في المطبخ، تعدّ لزوجها ولأبنائها أكلة شهيّة، تستمع إلى نصوص أدبيّة ممتعة ورائقة. ويلخص أصحاب هذه التّجربة الطّريفة هدفهم منها بالسّعي لأن يكون الكتاب ملتصقاً بالحياة في شتّى الوجوه، ولا تخلو المسألة طبعاً من غايات تجاريّة.

تجربة مفارقة

إلى هنا، وتبدو الأمور عادية تماماً، لكن غير العادي أو المفارق واللافت ما فعله الفرنسي «مارك روجيه»، الذي يطلق على نفسه لقب «القارئ العمومي»، والذي ابتدع أسلوباً فريداً من نوعه لتقريب الكتاب من النّاس وتحبيب المطالعة إليهم، فقد قرّر أن يتنقّل راجلاً من مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى ليقرأ على الناس مختارات من أمّهات الكتب.

والرّحّالة، هو في الأصل معلّم، تخلّى عن مهنته ليتفرّغ للتّجوال في بلاد الله الواسعة لقراءة نصوص مختارة من الأدب الفرنسي والأجنبي على مستمعيه في كلّ محطة من محطّات رحلته الطّويلة.

يقول متحدّثا عن تجربته الطّريفة: «عندما أخبر النّاس بأنّ مهنتي التي أعيش منها هي «قارئ عمومي»، فإنّهم يصابون بالدّهشة ويتملّكهم الاستغراب، وحتّى في الأوساط المهتمّة بالكتاب فإنّ من يسمعني لا يصدّق ما أقول له، خاصّة عندما أخبر من ألتقي به بأنّي سأنطلق في رحلة لمدّة عام بأكمله!».

وفي رحلته التي بدأها في 31 مايو الماضي والتي تستمرّ عاماً بأكمله سيقطع روجيه خمسة آلاف كيلومتر على قدميه، من فرنسا إلى باماكو في مالي، متسلحاً بعصا يتكئ عليها وحذاء جيد وحمار يحمل على ظهره كل لوازم الرحلة.

وسيقطع الرّحّالة فرنسا وإسبانيا وسيمرّ بالمغرب وموريتانيا ليصل بعد ذلك إلى السنغال ومالي، وفي كلّ يوم يفتح أمام النّاس كتاباً أو ديوان شعر يقرأ منه للجمهور الذي سيستمع إلى أجمل النّصوص وأمتعها، وسيكون مجموع الساعات التي سيقضيها في قراءة تلك النّصوص 160 ساعة.

بين «روجيه» الفرنسي و«ابن عقدة» العربي

القراءة والكتب و«حمير المثقفين»

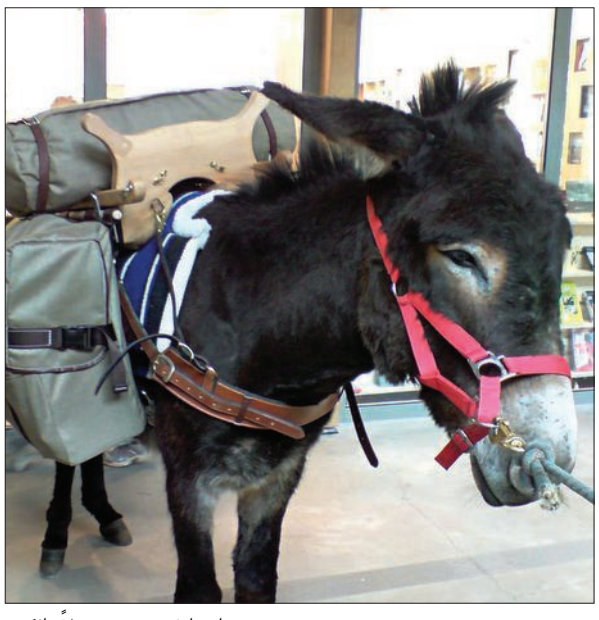

حمار مارك روجيه محملاً بالكتب

شهيرة أحمد

كثيراً ما أطلق تنهيدة حزن مشفعة بدعوة «بالرحمة» للشاعر الحكيم أبالطيب المتنبي، وذلك حين تنفتح سيرة القراءة أو الكتاب، أو حين يطرق سمعي الحديث عن «المفاخر والبطولات والعنتريات إياها»، وأتساءل: لو رأى المتنبي ما نحن فيه من «جهل قرائي» وعزوف عن الكتاب، وقرأ ما نقرأ من أرقام وإحصائيات تذل أكثر الأعناق علواً وارتفاعاً، هل كان سينظم بيته الشهير عن الكتاب ويسميه «خير جليس»؟ وفي حال شاهد ما نحن فيه من «عجز حضاري» واستنكاف عن امتطاء «وسائل الاتصالات» وهي اليوم محل «السروج السابحات» في زمانه... هل كانت تفتقت قريحته العظيمة عن ذلك البيت الشهير:

أعزّ مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ
وخَيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

خصوصاً، وأننا ما زلنا نحفظ هذا البيت، ونردده باستمرار لاستلهام ما في عجزه من الحكمة، متغافلين عن تلك التي يكتنزها صدره؟!.

القراءة والقراء

بالطبع، يمكن فهم أهمية أو مدلولات هذا التوسل بالشاعر وبيته الشعري في ظل إعلاننا الفاضح للقطيعة الشاملة مع القراءة، وفقداننا تلك العلاقة الحميمة التي بناها أجدادنا مع الكتاب بعد أن منحناه بالكامل للنسيان، وتركناه قابعاً في الإهمال يعلوه الغبار، ويتحسر على أمجاده الماضيات، في حين تخبرنا كتب التراث أن الكتاب والقراءة أُنزلا منزلة رفيعة لدى الأجداد. ومما ورد في حب القدامى والسلف للقراءة وحرصهم عليها: أن الجاحظ كان يكتري الدكاكين من الوراقين ويبيت فيها للنظر في الكتب فيبيت فيها في الليل حيث لا يكون أصحابها فيها. وكانت الكتب آخر عهده بالحياة، إذ توفي عندما انهارت إحدى هذه المكتبات عليه، فمات.

أما الإمام أبو داود السجستاني صاحب «السنن» فكان حين يفصل ثيابه يجعل كماً واسعاً وكماً ضيقاً، فقيل له في ذلك، فقال: الكم الواسع للكتب، والضيق لا حاجة له. ومن ذلك، ما يحكيه عبدالرحمن بن أبي زرعة عن والده الإمام أبو زرعة فيقول: «ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء في الطريق وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه». لهذا الحديث ما يبرره ليس فقط في موروثنا وتراثنا الخاص بالكتاب وتقديره لدى السلف، بل بالقياس إلى ما تكنّه الشعوب والثقافات الأخرى من حولنا للكتاب، وما تبديه من حرص على القراءة والمعرفة والثقافة، والنموذج هنا هو «روجيه» الفرنسي الذي قرر أن يفعل ما فعله «ابن أبي زرعة» منذ ثلاثة عشر قرناً، وأن يتحول «قارئاً» لا يقرأ لوالده فقط، بل يقرأ للناس في